حوار على مشارف السابعة والسبعين، لم يفقد «الحلزون العنيد»، رشيد بوجدرة، شيئاً من عناده وعنفوانه. فضلاً عن إسهاماته الأدبية الضخمة، التي تضاهي 35 مؤلّفاً في الرواية والشعر والمسرح والسيناريو السينمائي، يعدّ صاحب «التطليق» (منشورات «دونويل» ـ باريس ـ 1969) مثقفاً صدامياً وإشكالياً بامتياز. يشتهر بمواقفه وتصريحاته النارية، التي لا يكفّ من خلالها عن إضرام الحرائق وإثارة المعارك الثقافية والسجالات الفكرية والسياسية.

بعضهم يرى في رشيد بوجدرة محارباً دونكيشوتياً يقارع طواحين الهواء، بحثاً عن بطولة وهمية أو شهرة زائفة. بينما يراه البعض الآخر بطلاً سيزيفياً يصرّ على الإمساك بجمرة الحقيقة، مهما كانت حارقة. ولا يكلّ عن رشق المستنقعات الآسنة، التي تتخبط فيها الحياة الثقافية والسياسية لبلاده بحصى النقد، أملاً في إيقاظ الضمائر والتأسيس لـ «وعي ثوري متجدد». في رمضان الماضي، شهدت الجزائر حملة تضامن عارمة مع رشيد بوجدرة، على إثر برنامج تلفزيوني حاول تكفيره. التفّ حوله

رشيد بوجدرة... الحلزون

صاحب «التطليق» في حديث عاصف إلى «الأخبار»

■ كيف ترى «حراك المثقفين» الذي نشأ هذا الصيف في الجزائر، على إثر فضيحة «الكاميرا التكفيرية» التي تعرضتَ لها على قناة «النهار» المقربة من الأوساط المحافظة في السلطة (الأخبار 2017/6/2)؟

الصراع قديم. ليس وليد اليوم. في الجزائر، كما في كل دول العالم، هناك لدى المثقفين، وفي المجتمع ككل، شق تقدمي متفتح، وشق آخر متحجر. هذا الصراع بدأ عندنا منذ الاستقلال، عام 1962. بل حتى خلال الثورة الجزائرية، كان هذا الصراع قائماً. هناك تصفيات طالت المثقفين الذين انخرطوا في الثورة. خذ، مثلاً، قضية اغتيال الشهيد عبان رمضان (أحد القادة المؤسسين للثورة الجزائرية). النص الأدبي الوحيد الذي تحدث عنه هو روايتي «شجر الصبّار» (منشورات غراسيه – باريس - 2010). لماذا اغتيل عبان من قبل رفاقه في السلاح؟ اغتيل بسبب أفكاره. منذ بداية الثورة الجزائرية، كان هناك يسار ويمين متصارعان. والصراع ذاته ما زال قائماً. لكنه الآن صار مغلفاً بالدين. رأينا كيف دخلت الإسلاموية إلى الجزائر وتغلغلت فيها، وفعلت ما فعلت خلال عقد التسعينيات. والآن، بالرغم من أن العنف المسلح اختفى أو تراجع، إلا أن الإسلاميين ما زالوا فاعلين في المجال الاجتماعي. إنهم يتحالفون مع الفئات المحافظة والرجعية في المجتمع. لذا، تراجع العنف الجسدي أو المسلح، وحلت محله أشكال أخرى من العنف الفكري والاجتماعي. الإسلاميون يستعملون الحيلة الآن، ويلجأون الى تغليف خطابهم بمفاهيم الحلال والحرام والدفاع عن القيم. بالنسبة لهم الحرب خدعة. ذلك ما كان ينادي به زعيم «الجبهة الإسلامية للإنقاذ»، عباسي مدني، ويشجع عليه منذ عام 1992. ما زلنا نعيش تبعات هذه الحرب المخادعة. حرب لم تعد مسلحة، بل صارت تخاض بوسائل أخرى. انظر إلى هذه القنوات التلفزيونية التي ظهرت في الجزائر: أكثر من 10 قنوات تعمل بشكل غير قانوني. ليست لها رخص بث جزائرية. أغلبها ذات رخص خليجية، وتبث عبر الأقمار الصناعية، رغم أن مكاتبها موجودة في الجزائر. ما هي وظيفة؟ إنها تتلاعب عمداً بعقل الجمهور البسيط، الذي يحب الإثارة والقضايا التهريجية. هي تستغل ذلك لخدمة التيار الإسلاموي، الذي لا يزدهر سوى في ظل التجهيل والخرافة. لكن العيب ليس في تلك القنوات وأصحابها، بل في الدولة. الدولة الجزائرية تبدي على الدوام حرصاً بالغاً على السيادة الوطنية. لذا، لا نفهم لماذا تسكت عن هذه القنوات التي تخدم استراتيجية تخل بسيادة البلاد؟ هذه القنوات أدوات دعائية تعمل على تكريس وتقوية النفوذ الخليجي في الجزائر. نفوذ لم يعد دينياً أو مذهبياً فقط، بل صار يطمح أن يكون اجتماعياً ودبلوماسياً وسياسياً أيضاً. لا أدري لماذا تسكت السلطات الجزائرية عن ذلك؟ هل لأغراض سياسية؟ أم لمصالح مرتبطة بالفساد المالي؟

■ لكن أنت كمثقف تقدمي، لماذا تقبل بالظهور على هذه القنوات التلفزيونية التي تصفها بالرجعية؟

دعني أقول لك، منذ أكثر من 5 سنوات لم يُسمح لي بالظهور في القنوات التلفزيونية الرسمية التابعة للقطاع العام في الجزائر. طوال هذه السنين، لم توجه لي الدعوة للمشاركة في أي نقاش أو برنامج أو حوار، بينما القنوات الخاصة التي نتحدث عنها ـ رغم أنّها جميعاً ذات خلفيات إسلاموية ـ توجه لي الدعوات بانتظام للمشاركة في برامجها. خذ، مثلاً قناة «الشروق». لقد نظمت مناظرة فكرية بيني وبين أبو جرة سلطاني (أحد مؤسسي «حركة حماس» الإسلامية الجزائرية). كان النقاش بيننا راقياً ومفيداً. كان البرنامج جدياً والنقاش مفتوحاً ومتوازناً. سلطاني تحدث من خلفيته وثقافته وأنا أيضاً لكن من دون أي تصادم أو إقصاء. هو تقبل أشياء كثيرة مني كشيوعي، وأنا أيضاً تقبلت أشياء كثيرة منه كإسلامي، لأنه منفتح ومتسامح. لماذا لا تقوم القناة الأولى الجزائرية، أو غيرها من قنوات التلفزيون العمومي بتنظيم نقاشات أو سجالات فكرية من هذا النوع؟ لماذا يُترك ذلك إلى قنوات خاصة ذات خلفيات مشبوهة، وتخدم أجندات غير وطنية؟ ونحن، كمثقفين تقدميين، ماذا نفعل؟ هل يجب أن نقاطع تلك القنوات، وهي الأكثر مشاهدة وتأثيراً في الرأي العام، ونترك التيارات الرجعية والمحافظة والإسلاموية تستفرد بالمشاهد الجزائري وتغرقه بالشعوذة والخرافة والغيبيات؟ أنا ممن يفضلون النزول الى المعمعة، وخوض المعارك الفكرية والثقافية، مهما كانت المخاطر. لا يخفى عليَّ أن أغلب هذه القنوات حين توجه لي الدعوة للمشاركة في برامجها، تكون لديها رغبة مبيتة في الإساءة إليّ. من خلال رشيد بوجدرة، يريدون الانتقام من كل ما هو فكر تقدمي أو يساري. يريدون أن يظهروا أمام الشعب بأنهم متدينون ونحن كفار. يستعملون خطاباً شعبوياً وديماغوجياً. لكن الحيلة لا تنطلي على أحد. الكل يعرف أن أصحاب هذه القنوات منافقون وخبثاء وفاسدون أخلاقياً وسياسياً. هؤلاء انتهازيون يلعبون ورقة الدين لكسب ودّ الشعب، بينما هم أصلاً غير متدينين، بل يمكن القول إنهم فَاسِقُون، إذا أردنا توصيفهم من وجهة النظر الدينية. وإذا رجعنا إلى النزاع بيني وبين قناة «النهار»، بسبب ذلك البرنامج التكفيري الذي حاول الإيقاع بي، بحجة إنجاز كاميرا خفية من أجل التسلية، الهدف في الحقيقة لا علاقة له بالفكاهة والتسلية. كان قصدهم الحقيقي التحريض ضدي وتكفيري. لكن الشعب وقف في صفي، ولم يتعاطف معهم إطلاقاً، بل تقزز منهم ومن نفاقهم. لم ينجحوا في استمالة الناس، بالرغم من أنهم حاولوا وصمي بالخبث والإلحاد والعمالة، وأن يعطوا لأنفسهم صفة المدافعين عن القيم وعن الوطنية.

■ بالعودة الى المطبات والمقالب التلفزيونية التي تنصب لك، بشكل دوري، من قبل القنوات المقربة من القوى المحافظة في الجزائر، تعرضت لإشكال تكفيري سابق بسبب مجاهرته بإلحادك في برنامج «المحاكمة» على قناة «الشروق». لماذا يقبل رشيد بوجدرة المشاركة في برنامج عنوانه «المحاكمة»؟ لماذ تمنح لهم شرعية مساءلتك حول معتقداتك التي تندرج ضمن الحريات الشخصية؟

لقد وقعتُ في الفخ عن حسن نية. لم أشاهد ذلك البرنامج من قبل، ولم أكن حتى أعرف عنوانه. وثقتُ في مذيعته، وهي صحافية أعرفها، وتعاطفت معها لأن شقيقها، الذي كان صحافياً في القناة الإذاعية الثالثة، اغتيل من قبل الجماعات الإسلامية المسلحة في التسعينيات. جاءتني لزيارتي هنا في البيت. لم تكن محجبة، ولم تبد عليها أي توجهات متزمتة دينياً. حدثتني عن برنامجها، وأقنعتني بالمشاركة فيه، بعدما اتفقنا على المحاور التي سيدور حولها النقاش. لكن، أثناء التصوير، فوجئت بها تطرح أسئلة وإشكاليات خارجة عما توافقنا عليه. رفضت الإجابة عن الكثير من أسئلتها، مما تسبب في توقيف التصوير مرات عدة. ثم وعدتني بأنه سيكون هناك مونتاج للبرنامج، بحيث لا تُدرج فيه الأشياء التي لم أكن راضياً عنها. لكنني فوجئت بأنها أنجزت المونتاج بشكل مغرض للغاية، واستعملت حتى الأشياء التي تحدثنا عنها خلال الاستراحات التي تخللت التصوير الرسمي. وكان واضحاً أن مونتاج البرنامج بذلك الشكل المغرض، تم بتحريض من قبل مدير القناة، علي فضيل، المعروف بتملقه للإسلامويين، رغم أنه شخص فاسد وأبعد ما يكون عن التديّن. أعرفه منذ فترة طويلة، منذ أيّام الدراسة في تونس، أنا كنت في ثانوية الصديقية وهو في الزيتونة. من خلال معرفتي الطويلة به، أستطيع التأكيد بأنه شخص خبيث ومنافق. يلعب ورقة الإسلاميين، لكنني أعرفه جيداً: ليس لديه شيء من الإيمان والأخلاق الإسلامية. والخطاب الذي يروج له من خلال قناته التلفزيونية يندرج في خانة الانتهازية والنفاق السياسي، لا غير.

> **انا مسلم ثقافياً وحضارياً، وادعو إلى احترام الإلحاد كونه ايضاً مفهوما فكرياً وقيمة فلسفية**

■ بعد ذلك البرنامج، اندلعت حملة شرسة ضدك بسبب مجاهرتك بالإلحاد. لكنّ كثيرين ممن تضامنوا معك،

> **قنوات خليجية في الجزائر تخدم التيار الإسلاموي، الذي لا يزدهر سوى في ظل التجهيل والخرافة**

دفاعاً عن مبدأ حرية المعتقد، فوجئوا بك تتراجع بعدها بأسابيع، خلال تكريمك في «مهرجان وهران السينمائي»، وتتنكر لما قلته، مؤكداً أنك مسلم ولست ملحداً. كيف تفسر ذلك التراجع؟

لقد تعوّدت على الهجمات التكفيرية منذ الستينيات. لكن الغريب في تلك الحملة أنها قامت على مغالطة. لم أقل في ذلك البرنامج التلفزيوني إنني ملحد. لم أقل ذلك إطلاقاً. تحدثت عن الحق في الإلحاد، وضرورة احترام الإلحاد لا بوصفه أمراً يندرج ضمن حرية المعتقد فحسب، بل أيضاً كونه مفهوماً فكرياً يجب النظر إليه كقيمة فلسفية لا ككفر. ذلك ما قلته، ولم أتحدث عن كوني أنا شخصياً ملحد. هذه القضية شخصية، ولا تخص سواي. أنا لا أتحدث عن إلحادي، لأنني احترم مشاعر الجزائريين، ولا أريد أن أصدمهم. هذا الشعب طيب الى أبعد الحدود. والشارع الجزائري غمرني بحبه وتعاطفه خلال هذه الحملات التكفيرية. لم يسبق أن أحسستُ بحب الناس لي كما أحسست به خلال محنتي الأخيرة مع «النهار». الشعب الجزائري يحب الإنسان الصادق، ولو اختلف معه في الرأي. منذ واقعة «النهار»، أينما حللت، الناس يلتفون حولي، ويسلمون علي، ويقولون لي: نحن معك. هذا الشعب لا أستطيع سوى أن أبادله الحب، وأن أعامله بالقدر ذاته من الطيبة. وذلك يبدأ باحترام مشاعره ومراعاة معتقداته.

■ أتفهم ذلك. لكن ما حاجتك لأن تقوم، خلال تكريمك في وهران، بإشهار إسلامك. ربما كان يكفي أن تقول إنك لم تجاهر بالإلحاد، وأنك تحترم مشاعر المؤمنين، من دون أن يصل بك الأمر الى الحديث عن إسلامك والقول بأنك مؤمن، بعد أن كنت تقول العكس طوال عقود؟

لا، لا. أنا تحدثت عن الإسلام، لا عن الإيمان. بالطبع أنا مسلم ثقافياً. هل تشك في ذلك؟ هذا انتماء حضاري، وهو جزء من هويتي وثقافتي وفكري. دعني أقول لك صراحة: الذين يروّجون بأنني تراجعتُ واعتذرتُ وقلتُ أنني مؤمن، هم بعض الجبناء الذين يحترفون «القوادة الثقافية». هؤلاء لم يتخذوا موقفاً واحداً طوال حياتهم، ثم يتبجحون بالمزايدة على كاتب ومناضل تقدمي وماركسي مثلي محكوم عليه بالإعدام 8 مرات من قبل المتطرفين الإسلامويين. منذ 52 سنة، وأنا أكتب وأناضل دفاعاً عن أفكاري. لم أخفْ يوماً من التعبير عن أفكاري، حتى في أحلك الفترات. في كل كتبي، أدافع باستماتة عن القيم التقدمية وعن الحريات، بما فيها حرية الإلحاد. ولا يمكن أن أنكر ذلك يوماً أو أتراجع عنه. أما أن أظهر على التلفزيون لأستفز مشاعر شعبي بالقول إنني ملحد، فذلك ما لا أريده. وهؤلاء «الطحاحنة» (جمع «طحّان»، ومعناها باللهجة الجزائرية «القوّاد»)، الذين ينتقدونني بسبب هذا الموقف، الذي ليس جبناً أو تراجعاً بل احتراماً لمشاعر هذا الشعب الطيب، لماذا لا يظهرون هم أنفسهم على التلفزيون، ليقولوا إنهم ملاحدة!؟

■ إذا كان الحديث يتعلق بالانتماء إلى الحضارة الإسلامية، وتثمين هذا التراث الثقافي، فالأمر ليس جديداً عنك. سبق أن احتفيت بالصفحات المشرقة للتاريخ الإسلامي في العديد من رواياتك، من «ألف عام وعالم من الحنين» الى «سقوط جبل طارق».

بالفعل، من خلال رواية «ألف عام وعام من الحنين»، كنت أول من ابتدع فكرة استلهام التراث الثقافي الإسلامي في الرواية المغاربية والعربية. لاحقاً، ظهر روائيون آخرون واصلوا هذا المنحى، كجمال الغيطاني وآخرين. لقد كنت أدافع دوماً عن الحضارة الإسلامية، لأنني أؤمن بأن الفلسفة الإسلامية والعلوم الإسلامية شكلت روافد عظيمة في الثقافة الإنسانية، وقدمت خدمات جليلة لتاريخ البشرية. من هذه الناحية، أعتبر نفسي مسلماً. نعم، مسلم ونص، كما قلت في وهران. بل إنني أكثر إسلاماً من هؤلاء الاسلاميين الذين يتخذون من الدين مطية لخداع الناس والتلاعب بعقولهم لأغراض سياسية. أؤمن بأن الحضارة الإسلامية حضارة عظيمة، واعتبر القرآن الكريم كتاباً عظيماً ومبهراً. أما مسألة الإيمان والمعتقد الديني ووجود دين واحد أو إله واحد، فتلك قضايا فلسفية قابلة للنقاش. ومعتقداتي الشخصية في هذا الشأن لا تخص أحداً غيري، ولا يحق لأي كان أن يسائلني بشأنها.

■ ألا ترَ أنّ هناك من يتعمدون خلط المفاهيم، لإلصاق تهم ازدراء المعتقدات الدينية بكل مثقف يناهض التطرف أو التزمت الديني؟

يستطيع المرء أن يكون مثقفاً ماركسياً أو تقدمياً وأن يلعب دوراً طليعياً في تطوير مجتمعه وتثويره، من دون أن يزدري أو يشتم المعتقدات الدينية لشعبه. يجب احترام الناس ومراعاة مشاعر الآخر. هذا هو المفهوم الصحيح للعلمانية: أن تحترم الآخر وتقبل بالتعايش معه، في جو من التسامح والتآخي، رغم كل اختلافاتك معه. أنا، مثلاً، رغم مواقفي المعروفة من التطرّف الديني، كنت صديقاً للشيخ محفوظ نحناح (مؤسس حركة «حماس» الجزائرية). كان يدعوني بانتظام للعشاء في بيته. كان يعرف أنني ماركسي، وكنت أعرف أنه إسلامي. نشأت بيننا تلك الصداقة بيننا، لأنه كان معتدلاً ومتسامحاً، وأنا متفتح واحترم الآخر. كان معجباً بمواقفي الفكرية، لأنني لا أتملق الغرب، وأدافع عن منجزات الحضارة الإسلامية وأفاخر بها. وكان يحترم أيضاً القرار المبدئي والأخلاقي الذي اتخذته بالتخلي عن الفرنسية والكتابة